المأمــون أبو شوشــة

الشاعر .. و الأديب .. و الفنان

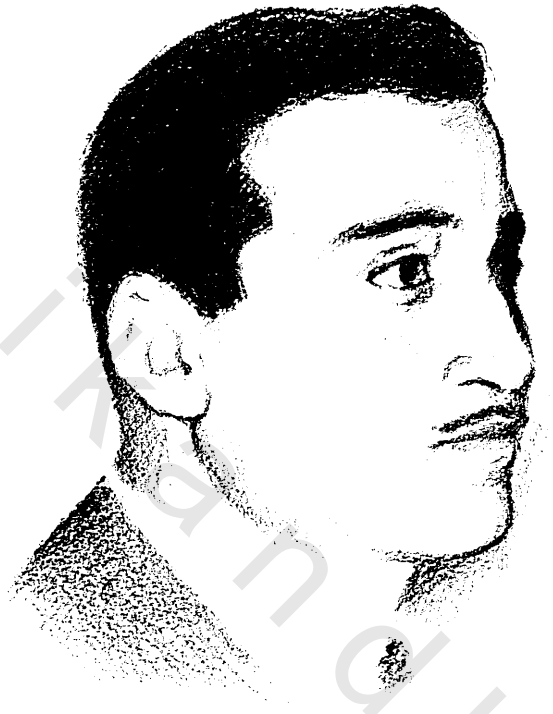

*... و إنا لـنندفـع فى كل شـيء ، حـتـى فى أحلامنا .. فنحـسب أننا نستطيع أن نسـخر الزمن لمشـيـئـتنا ، و نـظل نبنى عـلى هذا ونشيد .. فإذا دا هم نور الفجر أمسياتنا .. أفـقنا على يقظة الروح الهـائلة ، فليس ثمـة أحلام أو رؤى ، و يسخر الزمن منا ، و نحن حيارى بين آمالنا و يأسنا .. *

المأمون أبو شوشة

obeikandl.com

obeikandl.com

* عبد الله المأمون عباس إسماعيل أبوشوشة : «المأمون أبو شوشة»

* عربى من قبيلة « خويلد » ..

* ولد فى (٢٣ من جمادى الآخرة عام ١٣٤٥هـ ـ الموافق ٢٨ من ديسمبر سنة ١٩٢٦م) ..

* حصل على الابتدائية من مدرسة الأورمان الابتدائية ..

* حصل على الثانوية من المدرسة «السعيدية» الثانوية ..

* بدأت علاقته بنجيب الريحانى عام (١٩٤٤) ، عندما كان والده يشغل منصب مدير إدارة الفنون الجميلة ، و ذهب إليه «الريحانى» ليطلب منه إعانة الوزارة لمسرحه ، و رآه «المأمون» فى مكتب أبيه ، فتحدث إليه حوالى ساعة ..

* بدأت علاقته بالإذاعة سنة (١٩٤٥) وهو صبى صغير ، كان يمثل و يغنى ويقلد أصوات الحيوانات أيضاً فى برامج الأطفال التى كان يقدمها ـ آنذاك ـ «باباصادق» ..

*فى عام (١٩٥٣) : انضم إلي فرقة «ساعة لقلبك» للعمل معهم فى الحلقات..

* تخرج فى كلية العلوم بجامعة القاهرة سنة (١٩٥٤) و حصل على «بكالوريوس العلوم فى الجيولوجيا » و متخصص فى دراسة الحفريات القفرية ..

* التحق بكلية الآداب قسم اللغة الإنجليزية سنة (١٩٥٥) ..

* فى سنة (١٩٥٥) التحق بالعمل فى الإذاعة ، و سجل اسمه على أنه ممثل..

* كانت له القدرة العجيبة فى التمثيل و الغناء ، و أيضاً فى تقليد الأصوات مثل «نجيب الريحانى» و «يوسف وهبى» ، وكذلك أصوات الطيور و الحيوانات

وغيرها..

* حاز عدة ميداليات فى مباريات المسرح الجامعى منذ سنة (١٩٤٧) ..
* حاز الميدالية الذهبية الأولى لجوائز الشعر و القصة منذ عام (١٩٥٠) ..
* حاز على جائزة أحسن قصة فى مسابقة الصحافة الجامعية عام (١٩٥٥) ..
* حاز على الميدالية الذهبية فى الرسم «الكاريكاتير» فى أسبوع شباب الجامعات..
* حاز على كأس الخطابة للجامعة ..
* حصل على خمس ميداليات ذهبية للتمثيل فى دورى الجامعات سنة (١٩٥٧) ..
* حصل على ميدالية الرسم الذهبية فى اليوبيل الفضى للجامعة..
* **قدم للإذاعة العديد من البرامج .. منها :**

١ - «صواريخ» ..
٢ - «لن ننسى» ..
٣ - «دنيا الحيوان» ..
٤ - «كلمة في خبر» ..
٥ - «الأسبوع في ساعة» ..
٦ - «العلم والحياة» ..
٧ - «صباح الخير» ..
٨ - «حول الأسرة البيضاء» ..
٩ - «رسائل بور سعيد» ..

١٠ - «لسنا وحدنا» ..

١١- «قصة المعركة» ..

١٢- «سندباد» ..

١٣- «حديث المدينة» ..

١٤- «مجلة الهواء» ..

١٥- «قراءات دينية» ..

* كان أول مذيع يثير اهتمام المجمع اللغوى ، فأرسل إليه خطاباً يقول له فيه :

- « .. **من أسلوبك فى التقديم ، ومن لغتك السليمة ، رئى أن يشكرك المجمع اللغوى على تقديرك للغة واللفظ العربى فى وقت يغرق فيه زملاؤك فى الإسراف العامى** .. » ...

*توفى فى الحادية عشرة من صباح يوم الجمعة (**١١ من ذى القعدة عام ١٣٨٢ هـ - الموافق ٥ من أبريل سنة ١٩٦٣ م**) بالقاهرة ..

*** من مؤلفاته :**

١ - «الطير فى مؤتمر» صدر فى (**٢٣ من ديسمبر سنة ١٩٦٤**) فى سلسلة «من الشرق والغرب» .. بالقاهرة ..

٢- «دموع المهرج» .. صدر بالقاهرة عام (**١٩٦٨**) ..

٣- «صلاة العبيد» : عن دار الكاتب العربى للطباعة و النشر ، صدر فى عام **١٩٦٨** بالقاهرة .

* * *

* من آثاره النثرية :

(حديث الببغاء)

امتلأت الحواصل ، و رُفعت الموائد ، و خيمت فترة من سكون لم يقطعها إلا حركة مفاجئة من ببغاء دلفت إلى غصن ناتئ ، فقبضت عليه بكلاليبها ، وأخذها الزهو بشكلها الفريد .. فجعلت تقلب الطرف فى ريشها النضير الذى دبجته يد الخالق الصانع آية من آيات الإعجاز و الإبداع و صبغة من ألوان الطيف بكل ما يسكر الأبصار ، و يسحر البصائر :

ـ «صِبْغَةَ اللَّهِ وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً .. [1] ..»

و صاحت صيحة جافية :

ألا أيهـا الأطيـــار و يحكـم هبـوا خذوا من حديثى ما به يخلب اللب

يأيها الطير .. لقد قلدكم ابن آدم ـ فأجاد فى تقليدكم .. و حاكاكم فأحسن حكاية صفيركم وتغريدكم .. وزحمكم ، بل غلبكم علي مملكة الجواء التى ظننتم أنها خالصة لكم .. و ليس فيكم من استطاع أن يباريه ، أو يجاريه فى عمل يأتيه أو كلمة تخرج من فيه ..

و إنى لزعيم بأن أحمل عنكم عبء ما ثقل عليكم ، فأحدثكم بمثل لسانه و أسمعكم من منطقه و بيانه ..

لا ... بل سأتمثل الناس أمامكم ، و أشرح لهم أحزانكم و آلامكم .. فأكلمهم كلاماً يفهمونه ، و أعاتبهم عتاباً لا يسيغونه ، و أقول لهم يأيها الناس..

---

(١) سورة البقرة ـ آية ١٣٨ ..

إن الله الذى خلقكم فعدلكم ، وصوركم فأحسن صوركم ، وفضلكم علي كثير ممن خلق .. فضلكم بالعقل والحكمة ، وأوصاكم بالرفق و الرحمة ، ونبهكم الى أنه

«**وما مِنْ دابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَ لاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم**[1] » ..

و أبان لكم سبحانه عن فضل هذه المخلوقات التى سخرها لكم ، كما «سخر لكم الشمس و القمر و النجوم» ..

فأراكم أن «**الأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع و منها تأكلون**»[2]

«**وتحمل أثقالكم إلي بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشقِّ الأنفس**»[3] ..

و أنه يسقيكم «**مما فى بطونه من بين فرث و دم لبناً خالصاً سائغا للشاربين**[4] ..

و أنه خلق لكم «**الخيل و البغال و الحمير لتركبوها و زينة**» [5] ..

و أن النحل «**يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس**[6] ..

و لفتكم إلى قدرته إذا نظرتم إلى «**الطير مسخرات فى جو السماء ما يمسكهن إلا الله** [7] » ..

وجعل منا هدهد «سليمان» : رفيقه ودليله على الماء وحاديه إلى ملك بلقيس ، وحمام الغار الذى ستر «محمداً» صلى الله عليه وسلم من عيون الأعداء ..

---

(١)سورة الأنعام ـ جزءمن الآية : ٣٨ .. (٢)سورة النحل ـ آية : ٥ ..
(٣)سورة النحل ـ جزء من الآية : ٧ .. (٤)سورة النحل ـ جزءمن الآية : ٦٦ ..
(٥)سورة النحل ـ جزء من الآية : ٨ .. (٦)سورة النحل ـ جزءمن الآية : ٦٩ ..
(٧)سورة النحل ـ جزء من الآية : ٧٩ ..

وما الطير الأربعة التى أرى بها خليله إبراهيم كيف يحيى الموتى إذ قال :

«فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعياً ... » [1] ..

كما جعل منا معجزة «عيسى» فى أن يخلق من الطين على هيئة الطير ثم ينفخ فيه فيكون طيراً بإذن اللّه ..

وقد كرمنا الله سبحانه وتعالى في أكثر من مكان فى كتابه المكنون ، فقولوا لى بربكم يأيها الناس ماذا غركم بربكم الكريم ، وفيم فسقتم عن أمره، وبأى مشيئة وبأى جريرة تجرون علينا الأذى ، ونحن ندفع عنكم وعن زرعكم ألواناً من الأذى ، فنأكل البعوض و الحشرات والديدان التى تؤذى و تتلف أقواتكم ..

ومن عجيب أمركم .. أنكم تخلطون عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، فتتعشقون ضروباً من الطيور الغريدة ، ومن ذوات المناظر الجميلة .. فتسلبونها حريتها .. وتحبسونها فى أقفاص قد نمقتموها. وما أردتم بهذه السجون الثمينة إسعاد الطير الحبيسة ، وأنتم تعلمون فى قرارة نفوسكم أن الأسْر مُرّ، ولو كان فى جنة الخُلْد، وأن الحرية التى تبذل فى سبيلها الأرواح ، وترخص فى الحصول عليها الدماء لا تغنى عنها أطواق الذهب ، و لا أقفاص الفضة ..

ولكن الذى أردتموه إشباع شهواتكم ، وإرضاء نزواتكم ، والتنافس فى حب الظهور ، والمباهاة على حساب غيركم ..

ولست أدرى بأى مذهب تستحلون خنق هذه المخلوقات الضعيفة وأنتم ترون حراماً على أى قوم ـ بالغة ما بلغت قوتهم وضعفكم ـ أن يسلبوكم فتيلاً من حرياتكم ..

---

(١) سورة البقرة ـ جزء من الآية : ٢٦٠

و لكن لا عتب عليكم .. فهذا شيء فى دمائكم و طباعكم ..

ألم تكونوا تقيدون النساء في الدور ، و تكثفون عليهن الحجب والستور ، و تقفلون عليهن في الخدور لا لشيء إلا لغيرتكم ، و حرصكم عليهن ، واستئثاركم و شغفكم بهن ..

و أرجح الظن أن الآبقة لا تعيبها القيود ، والمارقة لا تحصنها الستور ..

ألا شيئاً من الإنصاف يا معشر الإنس إن كنتم ترجون الله و اليوم الآخر .. و تخشون أن تتاح الفرصة لقوى من عدوكم ، فيعاملكم بمثل معاملتكم ..

يا معشر الإنس .. لئن كانت هذه سبيلكم في معاملة الصغار الضعاف اعتزازاً بقدرتكم .. فما بالنا نراكم تتملقون الجوارح و الكواسر و السباع فتستعينون بها ، و تتسمون بأسمائها ؟ ..

أو ليس منكم «صقر» و «شاهين» و «باز» و «ذو الإصبع» و «أبو مالك» (النسر) و «أبو الحجاج» و «أم الهيثم» (العقاب) و «أم قيس» (الرخمة) .. ؟

و منكم «أسامة» و «ضرغام» و «نمر» و «سرحان» و «أبو عامر» و «أم نوفل» (الضبع) .. ؟

ومنكم «حوت » و «عنتر» .. إلى غير ذلك من نعوت البأس و الضخامة والدهاء .. ؟

يا معشر الإنس .. مالى أراكم تحصون على الخلائق أشياء قدرتموها سوءات و عيوباً ، ولا تذكرون ما سجله لها الواقع من المحامد ألواناً و ضروباً ..

ألا تذكرون الهدهد الجميل الوفى الأمين صديق «سليمان» النبى الكريم؟. ألا يروى عنه أنه خرج مع «سليمان» عليه السلام بعد فراغه من بناء «بيت المقدس» إلى أرض الحرم ، فلما قضى نسكه . خرج من مكة مصبحاً إلى

«اليمن» .. فوافى «صنعاء» عند الزوال .. فرأى أرضاً نضيرة زاهية الخضرة .. فلبث فيها ليصلى و يتغذى..

فلما رأى «الهدهد» وكان اسمه «بعفور» أن «سليمان» شغل عنه، حلّقَ فى الجو ، فلمح بستاناً «لبلقيس» استهوته خضرته .. فوقع فيه ، فرأى هدهد اليمن ، فسأله اليمنى : من أين أقبل ؟

فقال : من الشام معَ صاحبى «سليمان بن داود» عليه السلام .

فسأله : و من يكون صاحبه « سليمان » ؟

فقال : إنه ملك الإنس والجن والطير والوحش والريح ، و وصف له عظمة ملكه وما سخر الله له من كل شيء ..

ثم سأله «بعفور» بدوره : و من أين أنت ؟

فقال : من هذه البلاد .. ووصف له مُلْك «بلقيس » ، وعظم أمرها ، و قوة جيشها الذى يربو على ألف ألف مقاتل . ودعاه أن ينطلق معه ليربيه هذا الملك ..

فقال «بعفور» : إنى أخاف أن يفتقدنى «سليمان» وقت الصلاة إذا احتاج إلى الماء ..

فقال «هدهد اليمن » : إن صاحبك يَسُرُّهُ أن تأتيه بخبر هذه الملكة ..

فمضى معه و لم يرجع لسليمان إلا بعد العصر .. وكان «سليمان» قد نزل على غير ماء ، فتفقد « الهدهد » فلم يجد علمه عند أحد ، فغضب وقال : **« لأعذبنه عذاباً شديداً أو لأذبحنّه أو ليأتينى بسلطان مُبين** [1] » .

ودعا بالعقاب ـ وهو سيد الطير ـ وقال : علىّ بالهدهد هذه الساعة ..

---

(١) سورة النمل ـ آية ٢١ ..

فارتفع فى السماء .. فإذا هو بالهدهد مُقبلاً من جهة اليمن .. فانقض عليه ، وقال له : ويلك .. ثكلتك أمك .. إن « نبى الله » قد حلف ليذبحنك ..

فقال : أو ما استثنى ؟

قال : بلى .. (أو ليأتينى بسلطان مبين) ..

قال الهدهد : قد نجوت إذن ! ..

ثم طار مع العقاب حتى أتيا «سليمان » عليه السلام .. فأرخى الهدهد ذنبه وجناحيه تواضعاً وانكساراً ..

فأخذ سليمان برأسه ، فمده الهدهد إليه ، وقال : يانبى الله .. اُذكر وقوفك بين يدى الله عز وجل ..

فارتعد سليمان ، وعفا عنه .. ثم سأله عن غيبته ، فخبره خبر «بلقيس» ، ووصف له عرشها وملكها على ما رأى ، وحَبَّب إليه أن يضم مُلكها إلى مُلكه..

وإلى هنا .. تكون قد انتهت مهمة الهدهد فى حدود طاقته ، وأتم «سليمان » وجنوده نقل عرش ملكة « سبأ » ودعوتها إلى الإيمان ..

وقيل : تزوجها ، وأقرها على ملكها ، وأمر الجن فبنوا لها فى أرض اليمن ثلاثة حصون لم تقع عين على مثلها ، وهى « سبلجين » و « بينون » و«غمدان» ..

وكانت « بلقيس » وهى ابنة جنية على جانب عظيم من حصافة الرأى ، وجمال الخلقة ، لا يشوب حسنها إلا كثرة شعر ساقيها ..

فلما تزوجها « سليمان » .. أُشير عليه بأن يتخذ لها النورة والحمام لإزالة الشعر ، ولم يكن ذلك معروفاً من قبل .. وقد أنجب منها « سليمان » ولداً أسماه

« داود » .. لكنه مات فى حياة أبيه ..

وكان « الهدهد » يعرف مكانه من نفس « سليمان » .. فذهب إليه يوماً، وقال : يا نبى الله .. أريد أن تكون فى ضيافتى ..

فقال : أنا وحدى ؟

قال : بل أنت وعسكرك فى جزيرة كذا فى يوم كذا ..

فلبى « سليمان » عليه السلام الدعوة ، وذهب بجنوده إلى تلك الجزيرة ..

فطار الهدهد ، فاصطاد جرادة ، وخنقها .. ثم رمى بها فى البحر ، وقال : كلوا .. يا نبى الله ، من فاته اللحم ، لم يفته المرق ..

فضحك « سليمان » وجنوده ضحكاً كثيراً ، وقال قائل يصف ذلك :

جاءت سليمان يوم العرض هدهدة

أهدت له من جراد كان فى فيها

وأنشدت بلسان الحال قائلة :

إن الهدايا على مقدار مهديها

لو كان يهدى إلى الإنسان قيمته

لكان يهدى لك الدنيا وما فيها

ذلك « الهدهد » رضى عنه « الأنبياء » وغضبتم عليه ، وأحسن إليكم وأسأتم إليه ، وحرمت بعض الشائع قتله ، فأحللتموه جرياً وراء عقائد فاسدة اعتقدتموها ، وأوهام وترهات صدقتموها ..

فكم فقأتم له عيناً ، علقتموها على النساء كيما يلدن ذكراً ..

و حملها صاحب الحاجة عند السلطان ، كيما تنقضى ..

وبخرتم بِعُرْفِهِ المجنونَ، ليرتد إليه عقلُه ..

وعلقتم أمعاءه على من ينزف الدم ، ليسكن نزفه ..

وكم أخذ عاشق من رأسه و منقاره ولسانه تمائم حب لمحبوبته ، كى ينال مأربه منها ..

وكم اتخذتم الهداهد مذبوحة فى بيوتكم ، لتدفعوا الحسد والسحر عنها..

ثم تعالوا أسألكم عن القطا الرشيقة الأنيقة التى يتغنى الشعراء برقتها وجمال مشيتها فيقول قائلهم :

ولقد دخلت على الفتا ... ةالخدر فى اليوم المطيرِ
والكاعب الحسناء تر ... فل فى الدمقس و فى الحريرِ
فدفعتها فتدافعت ... مشى القطاة إلى الغديرِ
ولثمتها فتنفست ... كتنفس الظبى البهيرِ
وأحبها وتحبنى ... ويحب ناقتها بعيرى

ويتشبه بها الغوانى الخفرات فيقلن : نحن بنات طارق .. نمشى على النمارق .. مشى القطا النواتق ..

وهى عندكم مضرب المثل فى حدة البصر ، وفى صدق الخبر ، وفى الاهتداء إلى الأثر ، وفى الحرص والحذر ..

وللناس فى ذلك أحاديث وروايات وأقاصيص وحكايات .. فمن ذلك أنه كان بين«ابن القطا» الشاعرالشهير بالبغدادى ، وبين «الحيص بيص» الشاعر التميمى مناظرات .. فحضرا يوماً على سماط الوزير .. فأخذ ابن القطا قطاة مشوية ، وقدمها إلى الحيص بيص فقال هذا للوزير : يا مولاى .. إن هذا الرجل يؤذينى..

قال :كيف ؟..

قال :إنه يشير إلى قول الشاعر :

تميم بطرق اللؤم أهدى من القطا
وإن سلكت سبل المكارم ضلتِ
أرى الليل يجلوه النهار ولا أرى
خلال المخازى عن تميم تجلتِ
ولو أن برغوثاً على ظهر قملة
يكر على صفى تميم لولتِ

فضحك الوزير وترضاه ..

وكان ابن القطا فكهاً ظريفاً .. فمن فكاهاته :أنه جلس يوماً مع امرأته إلى طعام يأكلانه ، فقال لها : اكشفى عن رأسك ..

ففعلت .. فقرأ سورة « الإخلاص » ..

فقالت :ما الخبر ؟.

فقال :إذا كشفت المرأة عن رأسها لم تحضر « الملائكة » .. وإذا قرئت سورة « الإخلاص » هربت الشياطين .. وأنا أكره الزحمة علي المائدة .

ومنها أن « عمرو بن أمامة » نزل مع رجاله إلي جوار قوم « بنى مراد » فطرقوه ليلاً .. فأثاروا « القطا » من أماكنها ..

فرأتها امرأة يقال لها « حَذَامِ » .. فنبهتهم ، وقالت :

« ألا يا قومنا ارتحلوا وسيروا فلو ترك القطا ليلاً لناما

فلم يأبهوا لقولها ، وأخلدوا إلي مضاجعهم .. فقام فيهم رجل يقول :

إذا قالت حَذَامِ فصدقوها فإ ن القول ما قالت حَذَامِ

فنفر القوم ، وارتحلوا .. واعتصموا بوادٍ قريب منهم ، حتي أصبحوا ،

وامتنعوا من عدوهم ..

وكم شكا منكم للقطا شاكٍ ، وبكي باك ، واستنجدها مستنجد ، ألم تسمعوا إلى قول شاعركم :

بكيتُ إلى سِرب القطا إذ مررنَ بي

وقلت ومثلي بالبكاء جديرُ:

أَسِرْبَ القطا هل من يُعِيرُ جناحَه

لعلّي إلى مَن قد هويتُ أطيرُ

فما بال هذه « القطا » التي ظفرت بإعجابكم لا تظفر بشئ من إشفاقكم، فتراكم تحرقون عظامها ، وتعجنونها بالزيت ، ويطلي بعجينها رأس الأقرع لينبت شعره ..

وإذا شاء أحدكم استمالة محبوب ، لم تكفه قطاة واحدة ، فليشق بطن قطاتين ذكر وأنثي ، ويطحنهما ، ويأخذ دسمهما .. ثم يحتال علي أن يدهن به من أحب علي غفلة منه ، فيوقظ في قلبه الحب له ، والهيام به ..

لعمر الحق ما رأيت جزاء كجزائكم ، ولا كنوداً مثل كنودكم ، وما أري هذا غريباً عليكم ، فأنتم تكفرون بربكم الذي لا تحصون نِعَمَهُ عليكم ..

وكم من صاحب فضل أسدي إليكم معروفاً ، فتنكرتم له ، ونصبتم الشباك للإيقاع به علي حين أنكم تتحامون جانب الأشرار ، وتخشون بأسهم ، وتذلون نفوسكم ، وتحنون رءوسكم إجلالاً لهم ..

كَعَنْزِ السوءِ تنطح مَنْ خلاها

وتَرْأَمُ مَن يُحِدُّ لها الشَّفَارا

وهذه أم العلعل « القبرة » الضعيفة اللطيفة الأنيسة الأليفة التي تستأمنكم ،

وتتحبب إليكم ، وتضع وكرها على الجادة ، لا تخشى صيحة صائح ، ولاتقلقها زجرة زاجر .. وهى حريصة على ألا تقع في فخ صائد ، ولهذا حملكم الحقد على دوام مطاردتها ..

وروى أن « طرفة بن العبد » خرج فى طفولته ـ وهو ابن سبع ـ مع عمه فى سفر .. فنزلوا على ماء .. فذهب « طرفة » بفخ له ، فنصبه « لِلْقُبَّرِ » ، وبقى عامة يومه لم يصد شيئاً .. فرفع الفخ وعاد إلى عمه .. ثم حملوا ، وارتحلوا .. فرأى « القُبَّرَ » تلتقط ما نُثِرَ لها من الحب فقال :

يا لَـكِ مـــن قبـــرة بمعمـــر ... خلالك الجَوُّ فَبِيضِى واصفـرى
قـد رُفِـعَ الفـخُّ فـلا تحـــذرى ... ونقِّـرى مـا شئـتِ أَنْ تُنَقِّـــرى
قد ذهـب الصيادُ عنك أبشـرى ... لا بد يوماً أن تُصادى فاصبـرى

وروى عن « داود بن أبى هند » : أن رجلاً صاد « قبرة » فقالت : ما تريد أن تصنع بى ؟

قال : أذبحك ، وآكلك ..

قالت : والله أنى لا أُسمن ولا أغنى من جوع ، ولكنى أعلمك ثلاث خصال هى خير لك من أكلى .. أما الأولى فأعلمك إياها وأنا على يدك .. والثانية إذا صرتُ على الشجرة .. والثالثة إذا صرتُ على الجبال ..

فقال : نعم ..

فقالت ، وهى على يده : لا تأسفن على ما فاتك ..

فخلَّي عنها ..

فلما صارت على الشجرة قالت : لا تصدقن بما لا يكون ..

ولما صارت على الجبل قالت : يا شقى لو ذبحتنى لَوَجَدْتَ فى حُوَيْصِلَتى

دُرَّةً وزنُها عشرون مثقالا ..

فعض على شفته ، وتلهف ، ثم قال : هات الثالثة ..

قالت : قد نسيت الثنتين الأُولَيَيْن ، فكيف أعلمك الثالثة ..

قال : وكيف ؟

قالت : ألم أقل لك « لا تأسفن على ما فاتك » ؟ .. وقد أسفتَ عليَّ ، وقلت « لا تصدقن بما لا يكون » وقد صدَّقْتَ .. ولو جمعت عظامى وريشى ولحمى ما وزنت عشرين مثقالاً .. فكيف يكون فى حويصلتى درة تزن عشرين مثقالاً ؟ ..

فهل بمثل هذا اتعظتم وما أنتم ممن تفيد فيه العظات ، ولا تغنى النذر ؟

ثم خبرونى ما ذنب «ابن داية » عندكم ؟ نَعَّتموه بأقبح النعوت وكَنَّيتموه أسوأ الكُنىَ .. فهو غراب البين ، وأبو الشؤم ، وأنبياؤكم يقولون (لا طيرة ولافأل) وأنتم تتطيرون به ، فإذا وقع على ربوعكم وما يقع عليها عامرة بل غامرة، حملتموه جريرة خرابها ، وإذا نعق عند دار كان عندكم نذيراً بشتات أهلها ، ولا يصيبكم شىء إلا ما يجره أبو حذر ، ولا يتفرق أحباب إلا بنحس الغراب ، وما رأي أحد غراباً ، وهو يَحْدُو أو يقود قاطرة تقل نازحا إلى بلد غريب، أو تفرق بين حبيب وحبيب ، إلا وأنحى باللائمة عليه .

النـــاس يلحـــون غـــرا ... بَ البيـــــن لمـــا جهلـــوا

فمـــا علـــى ظهـــر غـــرا ... ب البيـــن تطـــوى الرحـــل

ولا إذا صـــــاح غـــــرا ... بُ فـــى الديـــار ارتحلـــوا

ومـــا غـــراب البيـــن إلا ... ناقـــــــة أو جمـــــــل

والغرابين مساكين .. تلتقط ما نبذتم ، وتتبلغ بما لفظتم ، وتريحكم من الحشرات والهوام ، ولا تؤذيكم فى شراب ولاطعام ، ولكنها عقيدة آمنتم بها ، وتمسكتم بأهدابها ، وكلفتموه علم الغيب فيقول شاعر:

زعم البوارحُ أن رحلتنا غداً ... وبذاك تنعابُ الغرابِ الأسودِ

لا مرحباً بغدٍ ولا أهلاً به ... إن كان تفريقُ الأحبةِ فى غدِ

ويقول غيره :

ألاَ يا غرابَ البينِ وَيْحَك نَبِّنى ... بعلْمِكَ فى لَيْلَى وأنت خبيرُ

ولكن أنَّى لقلوبكم الغُلْف أن تؤمن بأن الله هو عالم غيب السموات والأرض . «**ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء**[1] »..

هلا قلتم كما يقول ابن عباس إذا نعق الغراب : « **اللهم لا طير إلا طيرك، ولا خير إلا خيرك ، ولا إله غيرك** » ..

وكم للغراب من يد جحدتموها ، وحسنة أنكرتموها ..

أولم يروا أن رسول الله «محمداً» ﷺ دعا يوماً بخفيه ليلبسهما ، فلبس واحداً .. ثم جاء غراب فاحتمل الآخر ورمى به ، فخرجت منه حية .. فنصح لقومه : « **بألا يلبس أ حد خفيه حتى ينفضهما** » ؟ ..

وهل لم يأتكم نبأ ابنى آدم «قابيل » و «هابيل» حين قربا لله قرباناً ، فتقبل من هابيل ولم يتقبل من الآخر ..فنفس عليه ، فقتله ، ولم يَدْرِ كيف يصنع به، وما كان القتل معهوداً من قبل ، فبعث الله غرابين يقتتلان ، فقتل أحدهما الآخر .. ثم بحث فى الأرض بمنقاره ، ودفنه .. فتعلم منه قابيل ، واقتدى به فى دفن أخيه ..

---

(١) سورة البقرة ـ جزء من الآية ٢٥٥ ..

ومن ذا الذى يقنعكم بأن الغراب قد يكون دليل خير و أنتم تقولون :

إذا كـان الغـرابُ دليـلَ قـــومٍ أطاف بهم على جيف الكـلابِ

ومن عجيب نوادركم مع الأغربة ما يروى عن «أمية بن أبى الصلت» : أنه كان يوما فى مجلس شراب ، فجاء غراب فنعب نعبة .. فقال : أتدرون ما يقول هذا الغراب ، زعم أنى أشرب هذه الكأس فأموت . وأمارة ذلك أنه يذهب إلى هذه الكومة ، فيبتلع عظمة ،فيموت ..

فذهب الغراب إلى الكومة ، فابتلع العظم فمات ، وشرب أمية «على إثره الكأس .. فمات ..

ويحكى « أبو الفرج المعافى بن زكريا » قال : كنا نجلس فى حضرة «القاضى ابن الحسن » فجئنا على العادة ، فجلسنا عند بابه ، وكان بالباب أعرابى صاحب حاجة ، فوقع غراب على نخلة فى الدار ، فصرخ ثم طار .. فقال الأعرابى :

ـ إن هذا الغراب يقول « إن صاحب هذه الدار يموت بعد سبعة أيام» فزجرناه ..

فقام وانصرف .. ثم أذن لنا فى الدخول على القاضى .. فدخلنا ، فرأيناه ممتقعاً مغتماً .. فسألناه : **ما الخبر؟**

فقال : **رأيت البارحة فى نومى شخصاً يقول :**

منـــازلَ آلِ عبـــادِ بن زيـــدٍ عـــلى أَهْلِيكِ والنعَـمِ السـلامُ

وقد ضاق صدرى لذلك ، فدعونا له وانصرفنا ..

فلما كان اليوم السابع دفن القاضى كما خبر الأعرابى ..

فبالله عليكم ما أعجبها من غرب قد رفعت عنها الحجب ..

يا معشر الإنس .. أليس من مفارقاتكم أنكم تكرهون الغراب ، وتطيرون به، وتتخذون من قلبه ورأسه مع النبيذ شراباً يجرى المحبة للساقى فى دماء شاربه ..

ومن منقاره .. تميمة ، تقى حاملها أعين حاسديه ..

ومن كبده .. كُحْلاً يجلو غشاوة البصر ..

ومن مسحوق بيضه .. بلسماً يقطع البواسير .. ألا إن هذا لا يرضى العدالة فى قليل أوكثير .

وإنى لا أراكم تغالون فى التحوط من السحرة والنفاثين ، والتحفظ من الحساد و العائثين ..

وتحملون غيركم أعباء ما اجترحتم ، والله يعلم وأنتم تعملون أن (منكم بَلِيَّتكم وفيكم بُرْؤُها) والسحر أنتم جُناته ، وعليكم تَبِعَاتُه..

أفلم يكن منكم هاروت وماروت أُسْتَاذَا السحر ،ومنهما تعلم الناس ما يفرقون به النفوس ، ويخربون البيوت ، ويكيد بعضهم لبعض عادين عامدين ..

والحسد : داء فى نفوسكم .. ينفصل من عيونكم إلى بدن المعيون عفواً ، أو عمداً .. فيكون ذلك ناقصاً لقواه ، وقد يكون فاصلاً بينه وبين الحياة ..

ولقد خبرتم علماءكم فى كشف سر الحسد ، وقوة تلك الأعين التى تصيب أهدافها من غير تماس ولا تصادم ولا وساطة ولا عامل ..

وعللها معللون بأنها قوة تأثير روحى من العائن على المعيون ..

وقال غيرهم : إنها تيار كهربى يتسلط من الأول على الآخر فيصعقه ، ولكن يعرض لهم حسد العميان ، والحسد من وراء الحواجز والجدران ، وتشابه أثر العين وفعلها فى الجماد والحيوان، وكيف تخترق الأستار ، وتفتت الأحجار .. فيشكل عليهم الأمر ..

وسواء أصحت تعاليلهم أم أخطأت .. فالعلة مَرَدُّها إليكم ، ووِزْرُهَا واقعٌ عليكم ، ولا ذنبَ فيها للطير التى تتخذون من أشلائها التعاويذ والتمائم .. وتبخرون بدخانها الأحجبة والطلاسم ..

ولو أنكم غسلتم أيديكم من تلك الأوضاع ، وطهرتم نفوسكم من هذه الأوزار لَسَلِمْتُم وسَلِمَ غيرُكم من الحاسد والحسد ، ومن النفَّاثات فى العُقَد .

وفى الحق أن ما يروى عنكم فى هذا الباب يُذْهل العقول ويحيِّرُ الألباب..

فقد روى الجاحظ عن الأصعمى قال :

ـ «كان عندنا رجلان يعينان الناس .. فمر أحدهما بحوض من حجارة ، فقال : تالله ما رأيت كاليوم قط ... فَفُصِلُ الحوضُ فرقتين ، فأخذه أهله ، فضببوه بالحديد .. فمر عليه ثانية فقال : وأبيك لقلما أضررت أهلك فيك .. فتطاير أربع فرق » ..

وأما الآخر فإنه سمع صوتَ بَوْلٍ وراء حائط ، فقال : إنه لَيِّنُ الشَّخْب ..

فقالوا له : إنه فلان ابنك ..

قال : وانقطاع ظهراه !!

قالوا : إنه لا بأس عليك ..

فقال : لا يبول والله بعدها أبداً ..

قيل : فما بال حتى مات ..

* * *

وروى أن أعرابياً كان يقود إبلاً له ، فَمرَّ على قوم وكان فيهم رجل عيون .. فقال : ألا أطمعكم من هذه الإبل ..

قالوا : بلى ..

فشرع طرفه نحو بعير منها ، فسقط ، يتشحط ..

فالتفت إليهم الأعرابى وقال : تالله لأردنها عليكم ، ولن تنالوا من إبلى بغيتكم ..

ثم قرأ على البعير : **بسم الله الرحمن الرحيم . باسم الله لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم . باسم الله « قل أعوب برب الفلق . من شر ما خلق. ومن شر غاسق إذا وقب . ومن شر النفاثات فى العقد . ومن شر حاسد إذا حسد »** (١) **اللهم رب مطر حابس .. وليل دامس .. وشهاب قابس .. ورطب ويابس .. رد عين العائن عليه فى نفسه وأهله وأحب شىء إليه** » ..

قيل : فنشط البعير كأن لم يكن به شىء ، وخرجت عين العائن من فورها..

وما نرى لنا ولكم من خلاص إلا أن تتداركنا رحمة الله ، وهو أرحم الراحمين ..

* * *

ثم أنبئونى بعلم عن «البومة» وهى عندكم مذمومة مشئومة .. ما الذى تنقمون منها ؟ .. وبأى ذنب كنيتموها «أُم الخراب» وما تعلمون عليها من سوء إلا أنها تنقى دوركم من الحشرات والهوام ، وتدفع عنكم غائلة الفِيران التى تلتهم الرطب واليابس ، وتقرض ما تقع عليه من أثاث وأوراق ، وملابس وتلوث الأطعمة والأشربة ، وتعيث فى المخازن والأصونة متلفة مخربة ، وتنقل إليكم الأوبئة والطواعين ، وهى لكم ولأولادكم عدو مبين ؟!

---

(١) سورة الفلق ..

ولو لم يكن للبوم إلا هذا لكفى شفيعاً فى أن تكون فى عيونكم «أُم العمار» لا «أم الخراب » ولتيمنتم ولم تتطيروا .. ولكنكم (سامحكم الله) تقلبون الأوضاع ، وتقابلون بالسيئة الحسنة ، وما فتئتم ترون البوم رمزاً للشئوم ، وللتدمير معولاً ..

ألم تروا أن « الخليفة المأمون » وهو من أحكم الخلفاء وأعقلهم وأعلمهم، كان يشرف يوماً من قصره ، فرأى رجلاً قائماً ويبده فحمة يكتب بها على حائط القصر ..

فأرسل من خدمه من ينظر فيما يكتب ويأتيه به ، فرأى الخادم ما كتب الرجل فإذا به :

يا قصر جمع فيك الشؤم واللؤم متى تعشش فى أركانك البوم؟
يوم تعشش فيك البوم من فرحى أكون أول من ينعيك مرغوم

فقبض عليه الخادم ، وقال : **أجبْ أمير المؤمنين** ..

فتوسل إليه الرجل أن يخلى عنه ..

فقال : **ذلك أمرٌ ما إليه سبيل** ..

وساقه إلى الأمير ، وأنبأه بما كتب ..

فقال المأمون : **ويلك ما حملك على هذا ؟**

فقال : **يا أمير المؤمنين .. إنه لن يخفى عليك ما فى قصرك هنا من خزائن الأموال والحلى والحلل والطعام والشراب والفراش والآنية والمتاع والجوارى والخدم – وما عداها مما يقصر عنه وصفى، ويعجز عنه فهمى ، وانى يا أمير المؤمنين قد مررت الآن عليه وبى من آلام الجوع وشدة الفاقة ما لا يطيقه أحد ، فوقفت حياله مفكراً ، وقلت فى نفسى إن هذا القصر**

عامر شامخ ، وأنا جائع ، ولافائدة لى فيه .. فلو كان خراباً لما عدمت منه رُخَامة أو خشبة أو مسماراً أبيعه ، وأتقوت بثمنه ، أو ما علم أمير المؤمنين قول الشاعر :

قال المأمون : **وما ذا قال ؟**

قال :

إذا لم يكن للمرء فى دولة امرئ نصيبٌ ولا حـظٌّ تَمنَّى زَوَالَهَـا
وما ذاك من بُغْضٍ لها غـير أنـه يُرَجّى سواها فَهْوَ يَهْوَى انتقالَها

فقال المأمون : أعطه يا غلام ألف درهم .. ثم قال : هى لك فى كل سنة مادام قصرنا عامراً بأهله ..

وأن« كسرى» عاهل الفُرْس طلب يوماً إلى عامل له أن يصيد له شر الطير ، ويشويه بشر الوقود ، ويطعمه شر الناس .. فصاد بومة .. وشواها بحطب الدقلى ، وأطعمها ساعياً (نَمَّاماً) ..

وحكى أن « عبدالملك بن مروان » أرق ليلة ، فاستدعى سميراً يحدثه ، فكان فيما حدثه به : إنه كان بالموصل بومة والبصرة بومة.. فخطبت الأولى بنت الأخرى لابنها ..

فشرطت بومة البصرة أن يكون صداق ابنتها مائة ضيعة خراب ..

فقالت بومة الموصل : **أمـا الآن فـلا سـبـيل إلى هذا .. ولكن إذا دام والينا ـ سلمه الله ـ علينا سنة واحدة ، فَعَلْتُ لكِ ذلك ..**

ففطن « عبد الملك إلى تفقد الولاة وإنصاف الناس بعضهم من بعض ..

ولو أن الأمر اقتصر على التشاؤم ، لهان الشر على البوم .. فهى لا تظهر

للناس نهاراً ، ولاتدركها أبصارهم ليلاً لينالوا من إيذائها ما يشتهون .. ولكنهم يتحسسونها ، ويفتشون عن مكانها ، لأنهم يعتقدون أن الاكتحال بمرارة البوم يشفى ظلمة البصر ..

وأن التكحل بِمُذَابِ شحمها يُسَوى للناظر الليل بالنهار ، فيرى فى الظلام ما يراه فى النور ..

وأن البومة إذا ذُبحت أغمضت إحدى عينيها ، وظلت الأخرى مفتوحة .. فالمفتوحة : مُوقظة تعين على السهر ، والمغمضة : منومة تمنع الأرق ..

فليت شعرى مَنْ للبومة المظلومة !! إنها لشقية بمزعوم شؤمها .. وشقية بمظنون نفعها ..

وما قولكم فى « البزأة » وفى «الصقور» ، وهى عندكم عزيزة الأقدار ، حظية بالإجلال والإكبار ، مرموقة عند الملوك والأمراء ، موسومة بالفطنة والذكاء، وموصوفة بالشجاعة والوفاء ، ممدوحة من الأدباء والشعراء ..

وهى مفخرة السراة والأثرياء .. يرونها خير عون فى الطراد والصيد ، ويوظفون لها المدربين والصقارين ، وينفقون العشرات والمئين ، ويحوطونها بالتدليل والتنعيم ، ويصفونها بكل جليل وعظيم ..

ألم يقل فيها الأمير ابن المعتز :

وفتيانٍ غَدَوْا والليلُ داجٍ وضوء الصبح معتم الطلوعِ
كأن بُزَاتَهُم أمراءُ جيشٍ على أكتافهم صدأُ الدُّروعِ

فهل أجدى عليها هذا الإعجاب والإطراء ؟ وهل أفادت من الحظوة والاحتفاء ؟ ..

لقد حكى عن أحد الأشراف : أنه كان لديه صقر أنزله من نفسه أكرم منزل ، وجعل له فى قلبه المحل الأول ..فخرج فى حاشيته يوماً للصيد فطرد ، وأوغل فى الطرد ، حتى أبعد عن الحاشية ، وضل مكانها فى مفازة جرداء من العشب والماء ، فأحس بالظمأ ، وراح يتلمس منابع الأمواه و مساقطها .. حتى اهتدى بعد لأْيٍ إلى قطرات تنحدر من صخرة مشرفة .. فأخرج كأسا كانت معه، وأخذ يجمع فيها هذه القطرات علَّها تبل أُوَامَهُ ..

وكان صقره الأثير يتبعه فى كل ذلك ، وقد جعل يحوم فوق الصخرة حتى إذا امتلأت الكأس ، وهَمَّ صاحبه برفعها إلى فمه .. انقض انقضاض الصاعقة ، وتكرر منه ذلك ..

فاشتد حنق الشريف لبلوغ الظمأ منه مبلغاً لم يستطع عليه صبراً .. فاستل سيفه ، وما إن انقض الصقر عليه حتى بادره بضربة شطرته ، ولم يجدبُدًّا أمام إلحاح العطش عليه من أن يتسلق الصخرة ليملأ الكأس من مصدر الماء ..

فلما أتاه وجد فيه حية مكومة .. فأدرك سر ما فعل الصقر .. وندم أشد الندم على ما جزى به صقره الذى نجاه فقتله ، وشغلته شدة الحزن عن وطأة العطش .. ثم رجع إلى أهله غضبان آسفاً ..

بهذا .. ومثله قد جزيتموه .. ومنكم من يدق رأس الصقر ، ويدهن بمخه ليحفظ به قوة شبابه ، أو يتداوى به من اقتلاع الكَلَف من بشرته .. فأنتم فى سبيل ما يعرض من منافعكم لا تعرفون وفاء ..

ولم أنكم أقلعتم عن الإيمان بالخرافات .. وتنزهتم عن المعتقدات .. لكان لكم مع غيركم من خلق الله شأن الذى أنتم عليه ..

وإن من أعجب العجب .. أن العقول التى تزن الجبال ، وتفتل من الشمس الحبال – يسوغ فيها أن فى الطيور طيراً يقال لها : «عنقاء مغرب » تبيض بيضاً كالجبل ، وتخطف الثيران والأفيال كما تخطف الحدأة الفأر .. ولها فى كل جانب أربعة أجنحة .. فإذا طارت سمع دوى كدوى الرعدالقاصف والسيل الجارف .. وأن لها وجهاً كوجه الإنسان ، وفيها مشابه من جميع الطيور ، وتعمر ألفى سنة ..

وكانت فى قديم الزمان تعيش بين الناس ، ولكنها كانت تخطف أطفالهم، حتى سلبت يوماً عروساً بحليها .. فاشتد تأذيهم بها وشكوها إلى نبى لهم هو «حنظلة بن صفوان »عليه السلام ، فدعا عليها فأصابتها صاعقة ، فاحترقت ..

ولم يتحرج بعضكم من تصديق هذه ، ولعل أحرصهم فى ذلك كان «عبد الله بن أحمد الفرغانى » نزيل مصر .. فقد ذكر فى تاريخه:« أن العزيز بن نزار بن المعز » صاحب مصر . اجتمع عنده من غرائب الحيوان ما لم يجتمع عند غيره ..

فمن ذلك « العنقاء » وهو طائر جاءه من صعيد مصر فى طول «البلشون» ، لكنه أعظم جسماً منه ، وله لحية ، وعلى رأسه وقاية، ، وفيه عدة ألوان ومشابه من طيور كثيرة وهنالك من يقول :

الجود والغول والعنقاء ثالثة

أسماء أشياء لم توجد ولم تكن

أو قولهم :

إنى رأيت المستحيل ثلاثة

الغول والعنقاء والخل الوفى

ومهما يكن من أمرها ، فقد ترك حديثها فى الناس آثاراً يتمثلون به ، فيقولون للميئوس منه : (**حلقت به عنقاء مغرب**) ..

ويقول فيلسوف الشعراء « أبو العلاء المعرى » :

أرى العنقاء تكبر أن تصادا ... فعاند من تطيق له عنادا

وكثيراً ما كان ينشد القاضى الفاضل :

وإذا العنايةُ لاحظَتْكَ عُيُونُها ... نَمْ فالمخاوفُ كلُّهن أَمَان

واصطدْ بها العنقاءَ فَهْىَ حبالةٌ ... واقْتَدْ بها الجوزاءَ فَهْىَ عنان

ويا أبناء الطين والماء .. مالى أرتفع بكم إلى أجواز الفضاء ، وأحلّق وإياكم مع أطيار السماء ؟!

ولو أنى نزلت بكم إلى أرضكم .. وحدثتكم عَمَّا فى بيوتكم من الطير التى تعيش فى أكنافكم .. وتدرج تحت سقوفكم .. لوفرت على نفسى المشقة .. وقربت بيننا و بينكم الشُّقَّة ..

ولن أهبط بكم طفرة من المشارف إلى الوِهاد ، ولكننى مُتَّخِذٌ لكم منزلاً وسَطاً بين السماء والأرض .. فأذكرُ الحَمَامَ الذى تحبونه ، وتأنس بكم ، وليس شىء مما تتخذونه أنتم أشد شغفاً به ، ولا أشد صبابة منه .. يستوى فى ذلك رجالكم ونساؤكم ، وشيوخكم وصبيانكم ، عِلْيَتُكُمْ وسَفَلَتُكُمْ .. لا تفترق فى ذلك طبقة عن طبقة ، ما بين الحَجَّامِ إلى الملك الهُمَام ..

وهو عندكم الطائر الميمون ، والسفير المأمون .. تُحَمِّلُونَ زَواجِله أسراركم فى الخطر والضيق ، وتدفعون به إلى البلد المنقطع السحيق .. فيؤدى رسالته فى مثل سرعة البرق مع التحوط والحفاظ ..

وقد بارك الحمام جدكم و نبيكم « نُوحاً » عليه السلام ، فإنه حين بقى

فى لجة الطوفان أياماً ، بعث بالغراب ليرى له فى الأرض مكاناً يرسى عليه سفينته.. فرأى جيفة طافيةعلى الماء .. فوقع عليها ، ولم يعد إليه .. فأرسل الحمامة ، فعادت إليه ، ومعها قطف من كَرْم ، وعلى رجليها طين وحمأة دليلاً على الأرض .. فدعا لها ربُّه ، فجعل لها الطوقَ زينةً فى عنقها ، وفى ذلك يقول «أميةبن أبى الصلت » :

وأرسلت الحمامة بعد سبع ... تدل على المهالك لا تهابُ
تلمس هل ترى فى الأرض عينا ... وغايته بها الماء العبابُ
فجاءت بعدما ركضت بقطف ... عليه الشأط والطين الكبابُ
فلما فرسوا الآيات صاغوا ... لها طوقاً كما عقد السحابُ

وكذلك .. دعا له بالبركة ، وأمنه رسول الله «محمد» صلى الله عليه وسلم ..

وقد روى من حديث له عليه الصلاة والسلام ، أنه قال :

ـ « **اتخذوا الحمام المقاصيص فى بيوتكم ، فإنها تلهى الجن عن صبيانكم** » ..

وشكا إليه صلى الله عليه وسلم « علىُّ بنُ أبى طالب » الوحشةَ ، فقال له عليه الصلاة والسلام :

ـ «**اتخذ زوجاً من حمام تؤنسك ، وتصيب من فراخها ، وتوقظك للصلاة بتغريدها** » ..

والحمامةُ بهذا الإكرام حَرِيَّةٌ ، فقد أَظَلَّتْه وعششت ، وباضت على باب الغار ، حين خرج مهاجراً من مكة إلى المدينة ، فصرفت عنه أنظار أعدائه ، وأفكار طلابه ..

وقد جرى على تكريمها كثير من الناس على اختلاف الأديان والأجناس..

فإن من يزور «فينيسيا» مثلاً .. يجد حمامها آمناً كحمام الحرم فى « مكة» يمشى بين الناس ، ويلتقط الحب من أكفهم ..

ويحكى عن الإمام « فخر الدين الرازى » أنه كان يُلْقى درسه بـ «خوارزم» ، فسقطت بالقرب منه حمامة .. طردها بعض الجوارح، فلما وقعت ، رجع عنها ولم تقدر على الطيران لشدة ما نالها من الرعب ..

فلما قام الإمام من الدرس ، وقف عليها ، ورَقَّ لها ، وأخذها بين يديه.. وكان «ابن عنين» حاضراً .. فأنشده على البديهة شعراً جاء فيه :

مَنْ نبَّأ الورقاءَ أنّ مَحلَّكُم ... حَرَمٌ وأنك ملجأٌ للخائفِ

وفَدَتْ عليك وقد تَدَانَى حَتْفُها ... فَحَبَوْتَها ببقائها المستأنفِ

ولَوَ انَّها تحيا بمال لانثنت ... من راحتيك بنائلٍ متضاعف

وكان الخليفة « هرون الرشيد » يعجبه الحمام ، واللعب به .. فأُهْدِىَ إليه يوماً حمامٌ ، وعنده «أبوالبخترى» ..

وهب القاضى .. فروى له : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

ـ **«لا سبق إلا فى خف ، أوحافر ، أو جناح »** . **فزاد** : **«أو جناح»** ..

وهى لفظة وضعها للرشيد ..

فأعطاه وأجزل له ..

فلما خرج قال « الرشيد » :

ـ **تالله .. لقد علمت أنه كذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم .**

ثم أمر بالحمام فذبح ..

فقيل له : **وما ذنب الحمام ؟**

قال : **من أجله يكذب على رسول الله عليه الصلاة والسلام ؟** ..

فلذلك ترك العلماء حديث البخترى فلم يكتبوه ..

وللحمام فى علمكم خواص ومزايا ، إن صحت كانت من أعجب العجب .. فأنتم ترون فى مجاورتها أماناً من السكتة والفالج والخدر ..

وفى الاكتحال بدمها شفاء من الجراحات العارضة للعين ..

وفى لحمها شفاء للكلى ..

وأن زبلها إذا خلط بالخل وضمد به داء الاستسقاء شفاه ..

وإذا خلط بالدارصينى وشربه المصاب بالحصاة أذابها ..

وإذا بخرت به النفساء المعسر تيسرت ولادتها ..

وإذا شُقَّتْ الحمامة حية ووُضِعَتْ وهى حَارَّةٌ عَلَى موضع لسعة العقرب أبرأتها ..

وعِلْمُ ذلك عند الله وهو على كل شىء قدير ..

وإنكم لتجدون فى الحمام مُسْعِداً على أحزانكم ، ومُعِيناً على شدائدكم .. ومُسَلِّياً فى همومكم ..

ويجد أدباؤكم لذة وروحاً فى التشكى إليها ، والتحدث معها وعنها ، حتى ليخيل للسامع أنهم يتخاطبون مع ناطق ، ويتحدثون إلى عاقل ..

وهذه نفثة « لأبى فراس الحمدانى » وهو أسير يقول :

أقـــول وقـــد ناحـــت بقُربـى حمامـــةٌ

أَيَـا جـــارَتَا هـــل تعلمـــين بحالـــى

معـــاذَ الهـوى مـــا ذقـتِ طارقـــةَ النَّـوَى
ولا خطَـــرَتْ منـــك الهمـــومُ ببـــالِ

أَيَسْكـــتُ مأســـورٌ ، وتبكـــى طليقـــة
ويضحـك محـــزون، ويبـــدب ســـالِي ؟

أيـا جـــارتا مـــا أنصـــف الدهـــر بيننـــا
تَعَـــالَىْ أُقاسِـمْـــكِ الهمـــومَ تعالـــى

ويقول :

أَيْكِيَّـةٌ صَدَحَتْ شجوا على فنن فَهَيَّجَتْ ما خبا من نار أشجانى
ناحت وما فقدت إلفاً ولافُجِعَتْ فَـذَكَّرَتْنِـى أَوْطـارى وأوطـانى
طليقـةٌ مـن إسـارِ الهَمِّ ناعمـة أضحت تجدد وجد الموثق العانى
تشبهتْ بِىَ فى وَجْدِى وفى كَلَفى هيهاتَ ما نحن فى الحالين سيَّانِ
ما فى حشاها ولا فى جفنها أَثَرٌ من نَارِ قلبى ولا من ماءِ أجفانى

ولعل من حقكم أن يكون بينكم وبين الحمام هذه الألفة والمؤانسة .. فإن بينها وبينكم كثيراً من المشابهة والمجانسة ..

وقد لا يكون من شيء قط بين رجل وامرأة ، إلا ويرى مثله فى الذكر والأنثى من الحمام ..

فمنها العفيفة التقية التى تحصن نفسها ولاتخون أليفها ..

ومنها اللعوب التى لا تمتنع على طالب ، كالمرأة التى لا ترد يد لامس ..

ومنها المغايظة التى ترد على أليفها خيانة بخيانة ، إذا هو لم يحفظ عهدها ، ورأته مع غيرها ..

ومنها الغيور التى تقاتل دونه ، وقد تقتل منافستها ..

ومنها المداعبة المطمحة التى تزيف للذكور ، وتمتنع عليهم ..

وهناك التى تتعشق الإناث ، وتجد فى ذلك من متعة الجنس ما لاتجده فى مصاحبة الذكران ..

وليست هذه الأخلاق والعادات فى إناث الحمام وحدها .. ولكنها موجودة فى ذكوره ، كما تكون فى الناس بين النساء والرجال على سواء ..

ولعل الحمام يبزكم فى إجادة الغزل ، وإطالة القُبَلْ ، والافتتان فى التبرج والإغراء والدلال إلى حدٍّ لا يجاريه فيه النساء والرجال ..

كل هذه المشابه ، وكل تلك المناقب لم تكن فى يوم ما شفيعة فى كف نصالكم ومداكم عن رقاب الحمام ، ولا إخماد أرماضكم ونماركم عن طبخه وشيّه .

فقد طغت شهوة بطونكم ولذة حلوقكم على كل ما يرجى من حنانكم وعطفكم .

ولأَهْبِطْ الآن بكم إلى منازل الدجاج التى تدرج فى جحراتكم ، وتعيش بينكم وبين صغاركم .. فتعلمتم منها ، أو تعلمت منكم الجبن والْفَرَقَ ، وتشبهتم بديكتها ، أوتشبهت بكم فى الانتفاش والخيلاء والزهو والكبرياء حتى ضربت بكم وبها الأمثال فقيل : (**أزهى من ديك**) ..

ولست أدرى علام هذا الصلف ، وفيم هذه الخيلاء ؟!

لئن كنتم نسيتم أولكم ، أو تناسيتموه ، وجهلتم آخركم ، أو تجاهلتموه.. وتغافلتم عن حاضركم ، أو أغفلتموه ..

فاذكروا أن الله قد بدأ خلق الإنسان من طين ،ونهاكم ربكم عن لعُجْب والكبرياء فقال سبحانه :

ـ « **ولا تُصَعِّر خدك للناس** » (١) . **وقال «ولاتمش فى الأرض مَرَحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً** » (٢) ..

وما عليكم لو عرفتم قدركم ، وحزمتم أمركم ، ولم تنسوا أنكم فى الدنيا عابرو وسبيل ، وأنكم مفارقوها عما قليل ، فتحدُّوا من غُلَوائكم، وتهذّبوا من أخلاقكم، وتسلكوا مع أنفسكم ومع غيركم من خلق الله سبيلاً محموداً ..

فإن عشتم ، حنُّوا إليكم .. وإن متم ، ترحموا عليكم (٣) .

* * *

---

(١) سورة لقمان ـ جزء من الآية ١٨ ..

(٢) سورة الإسراء ـ الآية ٣٧ ..

(٣) مع الطير فى مؤتمر ـ الصادر فى ٢٣ /١٢/ ١٩٦٤ ..

* من آثاره فى الشعر :

(بين آمالى و يأسى)

ألا يأيهـا الليـل الغريـق بلجـة الصمـت
لياليـكَ التـى كانـت أغانيهـا صَدَى صوتـى
تعـال نعيـد ذكراهـا هنالـك فى يـد المـوتِ

* * *

فَـبِى يا ليـلُ مثلُ ظلامـك المخنـوق أوهـامُ
تُفـاجِئُهُـنَّ مثـل نجومِـكَ الزهـراءِ أحـلامُ
وتَـعْصِـفُ بـى وبالأوهـامِ والأحـلامِ آلامُ

* * *

غريـبٌ ثائـر أحيـا عـلى الأوهـام والـذكرَى
أُفَتِّـشُ عـن مكـانٍ يعشـقُ الإبداعَ والسحـرا
وأنتظـر البشيـرَ بـه .. فلـم تحفـلْ بى البُشْـرَى

* * *

فهـذا الكـونُ أحمـقُ ساسَ فيـه الأمْـرَ حَمْقَـاه
وسـاد عـلى الكـرام وقـد تعـالَى فيـه أَدْنَـاه
فكيـف مضـوا يُشَـوِّه بعضُهـم للبعـض نُعْمَـاه؟

* * *

بأى مشيئة مَلَكُوا على الإنسان دنياهُ
وقالوا إن شرعَ الكونِ أضْعَفُه لأقْواهُ؟
هواللهُ الذى ملَكَ العبادَ وماهُمُ اللهُ !

* * *

وفِيمَ يتيه أشقانا ونحن المعدنُ الدَّنسُ
وهذا أصلُنا فى الطين والأوحال ينغمسُ
وهذا منتهانا فى رماد القبر يحتبسُ

* * *

وهذى الريشةُ الرعناء ماذا صورت بدَمى
تصاويراً مشوهةً تزيد على الشجى أَلَمى
وأطيافاً مبعثرةً أضاعت بينها حُلمِى

* * *

هى الدنيا بما وسعتْ تضيق بها وبى نفسى
أساقيها صبَا أَمَلِى فأُسْقَى عندها يأسى
وقد ذُهِلَتْ بِحَانَتِها الرهينةِ للأسَى كأسى

* * *

مسارحُ فتنةِ حمقاء فى حاناتِ شيطانِ
على كأس من الأشلاءِ تسقى من دم قانِ
وتنشد لحنها المخمور فى أناتِ أحزانِ

* * *

فهـــل ياليـــل تُرْشـــدنى إلى أحـــلامِىَ النَّشْـــوَى
هنـــالك حـــيث ألقـاها ، فَأَلْقَـــى عنـدها السَّلْـــوَى
فتهـدأُ عندهـــا روحـــى وتخـــطئ قلـــبِىَ الشكـوَى

* * *

عـــلى أى البقـــاع النَّيِّـــراتِ بِـدَرْبِـــك الساحـــرْ
عـلى هـــذى النجـــوم اللاهبـــات بِجَوِّهـــا الشاعـــرْ
عـــلى أى الشعاعـــات الـــتى يحيـــا بهـــا الشاعـــرْ

* * *

هنالـــك حيـــث لا أَلَـــمٌ يُحيـــط الكـــونَ أو وَهْـــمُ
هنالـــك حيـــث لا شكـــوى ولا شـــاكٍ ولاظُلْـــمُ
فهـــل تـــدرى عـلى أى البقـــاع «أجـده» يا نجـمُ ؟

* * *

فيهمـــس لا ، ويأفـــل ناعيـــاً لظلامـــه عقـــلِى
ويهتـــف شاعـــر مجنـــون حـــار بخاطـــرٍ ثَمـــلِ
يفتـش عـن نبيـل القصـد ، هل فى الأرض من نُبْلِ؟

* * *

فهـــل مـــن موئـل بالشاطـئِ المسحـــور يا بحـــرُ ؟
يُضـــيء عـــلى يديـــه النُّـور والإيمـــانُ والطُّهْـــرُ
وتَغْـــرُبُ عـــن نواحيـــه الأنانيـــاتُ والكُفـــرْ ؟

* * *

بِظِلِّ الساحلِ الرملىِّ حيث العالمُ الرحبُ
وحيث الزورقُ النشوانُ والأحلامُ و القلبُ
إلى حيث الحياةُ الشعرُ والإلهامُ والحبُّ

* * *

إلى حيث الضفاف الساحرات قصائد خُضْرُ
يُغَرِّدُها مع الفجرِ الرطيبِ العشُّ والطيرُ
وينظِمُ بيْتَها المسحورَ فوقَ غُصُونِه الزهرُ

* * *

فيهتف لا وفى عينى مِمَّا فيه موجاتُ
من الدمع الشقىِّ على شَجَى الحرمانِ تقتاتُ
ويتركنى لِتَنْعَى حُلمِى المجروح أناتُ

* * *

وأسأل نَفْسِىَ الحيْرَى «بما» تَسْقى وأُسْقَاهُ
فؤادى عاشقٌ يانفسُ دنيا غيْرَ دُنْيَاهُ
فهل تدرين أين العالم المنشود ألقاه ؟

* * *

obeikandl.com

فهتف بي : أَجَلْ أدْرِى هنالك فى يد الموتِ
فأدعو أيها الليلُ الغريقُ بلُجَّةِ الصمتِ
تعالَ فإن أصداء المنايا كبَّلَتْ صوْتِى
تعالَ فإن آمالى هنالك فى يدِ الموت (*)

* * *

(*) دموع المهرج ـ سنة ١٩٦٨

obeikandl.com